٧. الشواهد الشعرية وغريب القرآن(*)

تمهيد:

يقسم نقاد الشعر العربى الشعراء إلى طبقات. ومنزلةالشعر العربى القديم كانت سببًا قويًا لهذا التقسيم.

والحقيقة أن الخط الفاصل بين القديم والحديث خط دقيق جدا، فكل شاعر يعيش فى زمنه هو حديث بالنسبة له، ولكنه قديم بالنسبة لمن جاء بعده. يقول ابن رشيق :«كل قديم من الشعراء فهو محدث فى زمانه بالإضافة إلى من كان قبله».

ولمنزلة الشعر القديم يروى الأصمعى: أنه جلس إلى أبى عمرو بن العلاء عشر حجج فماسمعه يحتج ببيت إسلامى.

ويفسر ابن رشيق هذه المنزلة فيقول: «وليس ذلك لشيء إلا لحاجتهم فى الشعر إلى الشاهد، وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون».

على أن نظرة ابن قتيبة بالنسبة لمنزلة الشعر القديم تختلف كل الاختلاف عن نظرة أبى عمرو وأصحابه، ذلك أنّ ابن قتيبة يرى أن الشعر هبة سماوية لاينفرد بها جيل، أو يستأثر بها عصر، أو يسيطر عليها زمن فيقول: «لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولاخص بها قومًا دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً فى عصره».

على أية حال فالذى أود أن أذكره هنا أن النقاد قسموا الشعراء بالنسبة إلى الزمن إلى أربع طبقات:

جاهلى قديم، ومخضرم: وهو الذى أدرك الجاهلية والإسلام. وإسلامي. ومحدث. ثم صار المحدثون طبقات: أولى، وثانية على التدريج هكذا فى الهبوط إلى وقتنا هذا» .

ويعقد البغدادى فى خزانة الأدب فصلا عن الكلام الذى يستشهد به فى اللغة والنحو

(*) نشر فى مجلة الوعى الإسلامى ـ فبراير ١٩٧٧.

والصرف. وبعد أن وافق النقاد فى تقسيم الشعراء إلى الطبقات الأربع السابقة ذكر أن الطبقتين الأوليين يستشهد بشعرهما إجماعًا، وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها،.... وأما الرابعة فالصحيح أنه لايستشهد بكلامها مطلقاً.

وهناك وجهة نظر أخرى حول الاستشهاد بشعر الطبقة الرابعة فقد رأى بعض العلماء أنّ توافر الثقة بالشاعر يطمئن النفس بالاحتجاج بشعره حتى ولو تأخر زمنه، وعلى رأس هؤلاء القائلين بهذا الرأى الإمام الزمخشرى والإمام الرضى حيث استشهد بشعر أبى تمام فى عدة مواضع فى شرح الرضي على الكافية. واستشهد الزمخشرى أيضاً فى تفسير أوائل البقرة من (الكشاف) ببيت من شعره وقال:«وهو وأن كان محدثا لايستشهد بشعره فى اللغة فهومن علماء العربية».

معنى غريب القرآن:

القرآن الكريم ـ وإن نزل بلغة العرب ـ يحتوى على كلمات تحتاج إلى بيان وإيضاح ، لأنها قد تكون لغة لقبيلة «أو تكون مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب كالظلم، والكفر ، والإيمان ونحوها مما نقل عن مدلوله فى لغة العرب إلى المعانى الإسلامية المحدثة».

وقد بدأت حركة الكشف عن هذه الكلمات الغامضة على يد رسول الله ﷺ ، فقد سأله أعرابى عن قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾[الأنعام:٨٢] قائلاً: وأينا لم يظلم نفسه؟ ففسر له النبى عليه الصلاة والسلام الظلم بالشرك واستشهد عليه بقوله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان :١٣].

ويوضح ابن قتيبة فى كتابه «المسائل» أن «العرب لاتستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه بل لبعضها الفضل فى ذلك على بعض، والدليل عليه قول الله عزوجل:﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] ثم قال : «ويدل عليه قول بعضهم: يارسول الله أنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه، ونحن العرب حقا، فقال: إن ربى علمنى فتعلمت».

وكان الصحابة رضى الله عنهم يسمون هذا الغريب : «إعراب القرآن». ولايقصدون به معنى: الإعراب النحوى، لأنهم كما يقول الرافعى كانوا: «يستبينون معانيه، ويخلصونها» وقد روى أبو هريرة : «أعربوا القرآن، والتمسوا غرائبه».

وقد لمس هذا المعنى الزمخشرى فى كتابه:«أساس البلاغة» فقال: «وتكلم فأغرب إذاجاء بغرائب الكلام ونوادره، وتقول :فلان مغرب كلامه ومغرب فيه، وفى كلامه غرابة، وغرب كلامه، وقد غربت هذه الكلمة أى غمضت فهى غريبة، ومنه قول الأعرابي: ليس هذا بغريب، ولكنكم فى الأدب غرباء».

الشواهد الشعرية والغريب:

مما لاشك فيه أن اهتمام الرواة بالشعر العربي، وجمعه وروايته، وإقامة الدراسات حوله لنقده كان من أجل القرآن الكريم لتفسير غريبه، وتوضيح معانيه. والدليل على هذا قول ابن عباس رضى الله عنهما:«إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب» ولاهتمام العلماءبالقرآن الكريم كان الشافعى الفقيه الكبير يحفظ عشرة آلاف بيت من شعر هذيل بإعرابها، وغريبها ومعانيها.

وحدثوا عن ابن الأنبارى أنه كان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت من الشعر من أجل القرآن الكريم.

وقد أشاد الرافعى بهذه العناية الفائقة التى وجهها العلماء إلى الشعر العربى من أجل القرآن الكريم فقال: «توسع أهل اللغة فى شواهد القرآن، ونقبوا عنها...إلى أن يقول: فلايعرف فى تاريخ العلوم اللسانية قاطبة شواهد تبلغ عدتها أو تقاربها أو تكون منها على نسبة متكافئة، فإنّ ما أحصوه من شواهد القران فيما ذكروا ثلاثمائة ألف بيت من الشعر ولعمر أبيك إنها لمعجزة فى فنها، ولو بلغت الشواهد نصف هذا القدر لكانت المعجزة كاملة».

ويسوق لنا الإمام البيضاوى فى تفسيره قصة تبين لنا فى وضوح كيف كان يعجز بعض الصحابة عن فهم معانى بعض هذا الغريب، فإذا ما فسر هذا الغريب بشعر قالته العرب استراحت النفس إلى هذا التفسير، وأطمأن القلب ألى هذا البيان . ففى قوله تعالى:

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّف﴾[النحل:٤٧] . يقول البيضاوي: أى على مخافة بأن يهلك الله قومًا قبلهم فيتخوفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوفون أو على أن ينقص شيئاً بعد شيء فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، من تخوفته إذا تنقصته».

وهذا التفسير لمعنى التخوف ماكان معروفًا لولا هذه ا لحادثة التى ساقها البيضاوى عقب تفسيره لهذه الكلمة فقد قال: روى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل، فقال: هذه فى لغتنا. التخوف : التنقص، فقال: هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ قال نعم. قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخوف الرحل منهاتامكاً قرداً كما تخوّف عود النبعة السفن

فقال عمر: عليكم بديوانكم لاتضلوا. قالوا: ومادیواننا؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم، ومعانى كلامكم.

ويعرض لهذه الكلمة الغريبة القالى فى كتابه الأمالى مفسرا بعض الكلمات الغامضة فى بيت الاستشهاد فيقول: التامك: المرتفع من السنام. والقرد: المتلبد بعضه على بعض . والسفن : المبرد.

ولم يكتف أبو على القالى بهذا البيت المستشهد به لتوضيح كلمة : «تخوف» بل يشفع ذلك البيت ببيت آخر فيقول «وأخبرنى أبو بكر بن الأنبارى عن أبيه قال : أتى أعرابى إلى ابن عباس فقال:

تخوفنى مالى أخ لى ظالم فلا تخذلنى اليوم ياخير من بقي

فقال: تخوفك : أى تنقصك؟ قال: نعم، قال الله أكبر:﴿يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّف﴾.

وتواجهنا فى آمالى القالى كلمة أخرى غريبة وهى كلمة :«يمحص» من قوله تعالى ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[آل عمران:١٤١].

قال أبو على : قرأت على أبى بكر الأنبارى فى قوله عزوجل :﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ أقوالا : قال قوم : يمحصهم :يجردهم من ذنوبهم، واحتجوا بقول أبى دؤاد الأيادى يصف قوائم الفرس.

صم النسور صحاح غير عاثرة ركبن فى محصات ملتقى العصب

النسور : شبه النوى التى تكون فى باطن الحافر. ومحصات: أراد قوائم منجردات ليس فيها إلا العصب والجلد والعظم. ومنه قولهم: اللهم محص عنا ذنوبنا. قال : وقال الخليل: معنى قوله عزوجل: وليمحص: وليخلص. وقال أبو عمرو وإسحاق بن نزار الشيباني: وليمحص: وليكشف واحتج بقول الشاعر:

حتى بدت قمراؤه وتمحصت ظلماؤه ورأى الطريق المبصر

قال: ومعنى قولهم :اللهم محص عنا ذنوبنا أى اكشفها، وقال آخرون: أطرحها عنا. وقال أبو علي: هذه الأقوال كلها فى المعنى واحد ألا ترى أن التخليص تجريد، والتجريد كشف، والكشف طرح لما عليه».

وقد فاضت كتب التراث الإسلامى بهذه الشواهد الشعرية التى خدمت القرآن الكريم فى توضيح غريبه، وكشف معانيه.

وإلى القارىء نماذج من هذه الشواهد ليدرك مدى ما بذل هؤلاء العلماء من جهد صادق فى مجال القرآن الكريم.

من هذه النماذج:

كلمة (زنيم) من قوله تعالى ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[القلم:١٣] فقد سئل ابن عباس عنها فاستشهد فيها بقوله :

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد فى عرض الأديم الأكارع

وعن ابن مليكة قال:سئل ابن عباس عن «الليل وما وسق» فقال: وماجمع، ألم تسمع قول الشاعر:

إن لنا قلائصًا حقائقا مستوسقات لو يجدن سائقا

وأسئلة نافع بن الأزرق لابن عباس حول كلمات من غريب القرآن الكريم مشهورة سجلتها معظم الكتب التى ألفت فى الدراسات القرآنية. وكانت إجابة ابن عباس عن هذه الأسئلة بالشعر العربى ليؤكد أن هذه الكلمات ليست غريبة عن اللغة، وإن كان لايدركها الكثير من العرب.

ومن أسئلة نافع سؤاله عن قوله الله تعالى :﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِين﴾[المعارج:٣٧]. قال ابن عباس: حلق الرفاق . قال نافع : وهل تعرف العرب ذلك قال نعم، أما سمعت عبيد ابن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتـــى يكونوا حول منبره عزينا

وسأله عن قوله تعالى: ﴿ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِه ﴾ [الأنعام:٩٩] : نضجه أما سمعت قول القائل:

إذا مامشت وسط النساء تأودت كما افتر غصن ناعم النبت يانع

وسأله عن قوله تعالى :﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥] قال : الوسيلة.

الحاجة. أما سمعت قول عنترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلى وتخضبي

وسأله عن قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الرعد:٣١] قال : أفلم يعلم. أما سمعت قول مالك بن عوف.

لقد يئس الأقوام أنى أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

وسأله عن قوله تعالى : ﴿وَلَا تَضْحَى﴾ [طه:١١٩] قال : لاتعرق من شدة حر الشمس، أما سمعت قول القائل:

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأمابالعشى فيخصر

الغريب والمجاز:

وإذا تجاوزنا هذا الغريب إلى المعانى والمجاز فإننا نرى كثيرا من الشواهد الشعرية جاءت لتوضح هذه المعانى ، وتكشف لنا أسرار هذا المجاز.

ويطالعنا أبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى فى كتابه :«جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام» بطائفة من الشعر الذى استشهد به فى مجالى المعانى والمجاز.

يقول أبو زيد: «وفى القرآن مثل ما فى كلام العرب من اللفظ المختلف ومجاز المعانى فمن ذلك قول امرىء القيس:

قفا فاسألا الأطلال عن أم مالك وهل تخبر الأطلال غير التهالُك

فقد علم أن الأطلال لاتجيب إذا سئلت، وإنما معناه : قفا فاسألا أهل الأطلال، وقال الله تعالى:﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾[يوسف : ٨٢].

وقال الشماخ بن ضرار التغلبي:

أعائش ما لقومك لا أراهم يضيعون الهجان مع المُضيع

(لا) هنا زائدة، والمعنى: ما لقومك أراهم . وقال تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٧] (لا) هنا زائدة.والمعني: غير المغضوب عليها والضالين.

قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

فجعل (إلاّ) بدلا من الواو، والمعني: والفرقدان كذلك . وقال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾[النجم:٣٢] (إلا) هنا بدل من الواو . والمعنى : واللمم. وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾[يونس:٩٨].

وقال امرؤا لقيس بن حجر:

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرت وألاّ يُحسن السِّرَّ أمثالى

السر: النكاح ، قال تعالى :﴿وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾[البقرة:٢٣٥]

وقال زهير :

ويُنغضِ لى يوم الفِجار وقد رأى خيولا عليها كالأسود ضوارى

ينغض: يرفع رأسه . قال تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾[الإسراء:٥١] أى يرفعونها ويحركونها بالاستهزاء.

وقال النابغة:

تَلُوثُ بعد افتضال البُرد مئزَرَها لَوْثًا على مثل دِعْصِ الرملة الهارى

الهاري: المتهدم من الرمل . قال الله تعالى :﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾[التوبة:١٠٩] أى متهدم.

وقال الأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها مور السحابة لاريث ولاعجل

وقال الله تعالي:﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ [الطور: ٩] والمور: الاستدارة والتحرك.

وقال الأعشى:

أم غاب ربك فاغترتك خصاصة فلعل ربك أن يؤوب مؤيدا

الرب : السيد، قال الله تعالى : ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾[يوسف:٥٠] أى إلى سيدك.

وقال الأعشى:

تقول بنتى وقد قرّبت مرتحلاً يارب جنب أبى الأوصابَ والوجعا

عليكِ مثلُ الذى صليت فاغتمضى نوما فإن لجنب الحيّ مُضطَجَعا

الصلاة ها هنا: الدعاء تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾التوبة:١٠٣]

وقال الأعشى يذكر النعمان:

وخرت تميم لأذقانها سجودا لذى التاج فى المعمعه

الأذقان:ا لوجوه كقوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾[الإسراء:١٠٩] .

وقال لبيد:

وما الناس الا عاملان فعامل يتبِّر ما يبنى وآخر رافع

يتبر: أى ينقص قال الله تعالى : ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف:١٣٩]

وقال أمية بن أبى الصلت:

وفيها لحم ساهرة وبحرٍ وما فاهوا أبدا مقيمُ

الساهرة : الفلاة . قال الله عز وجل : ﴿فإذا هُم بالسَّاهرة﴾[النازعات: ١٤]

وقال أمية بن أبى الصلت:

نفشت فيه عِشاءً غَنمٌ لرعاء ثمّ بعد العتمهْ

النفش :الرعى بالليل. قال الله تعالى: ﴿إذْ نَفَشَتْ فِيه غَنَمُ الْقَوْمِ﴾[الأنبياء: ٧٨] .

وقال أمية بن أبى الصلت:

لقيت المهالك فى حربنا وبعد المهالك لاقيت غيّا

غىّ : واد فى النار . قال الله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]

وقال أبو ذؤيب:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها فى بيت نُوبٍ عواسلُ

لم يرج : لم يخف. وقال الله تعالى : ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣] أى لاتخافون.

هذه أمثلة متعدّدة اقتبستها من كتاب الجمهرة تثبت أن الشواهد الشعرية ضرورة ملحة فى توضيح معانى غريب القرآن، وكشف الستار عن مجاز الكلمات القرآنية التى لا تستطيع المعاجم اللغوية أن تفى بإيضاحها، وبيان المقصود بها.

ويعلق صاحب جمهرة أشعار العرب على هذه الشواهد بعد أن ساق هذه الأمثلة الكثيرة بقوله : (والأخبار فى هذا لعمرى تطول ، والشواهد تكثر غير أننا اقتصرنا من ذلك على ما حكيناه فى كتابنا هذا).

أول مصنف فى غريب القرآن:

لعلنا إذا بحثنا مدققين عن أول مصنف يطالعنا فى مضمار غريب القرآن نجده كتاب

«مجاز القرآن» لأبى عبيدة معمر بن المثنى، ذلك لأن السيوطى فى كتابه:« الوسائل فى مسامرة الأوائل» ينص على أن أول من صنف فى غريب القرآن هو : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، «لأنه جاء بعد قتادة بن دعامة السدوسى المتوفى ١١٧ ه وأبى عمرو بن العلاء المتوفى ١٥٤هـ.، وهما لم يخلفا لنا أثرا مكتوبًا وإنما كانت الأخبار تنقل عنهما مشافهة».

وكتاب: مجاز القرآن» لأبى عبيدة وإن كان يحمل اسم المجاز فهو فى حقيقة أمره كتاب يدور حول الغريب من الكلمات القرآنية، وتفسير هذا الغريب بالشعر وكلام العرب.

وقد التبست كلمة« المجاز» هذه على المرحوم الاستاذ عبد العزيز البشرى فقد ذهب إلى أن كتاب (مجاز القرآن) لأبى عبيدة يدور حول بيان الحقيقة من المجاز فى القرآن الكريم.

وقد رد الاستاذ المرحوم أمين الخولى على الاستاذ البشرى هذا الظن وبين «أن الحق الذى قاله القدماء، وتنطق به القطعة المحفوظة بدار الكتب المصرية من كتاب أبى عبيدة نفسه - الحق أن هذا الكتاب فى تفسير القرآن».

وقداستدل أمين الخولى بقول ابن تيمية عنه فى كتاب «الإيمان» إذ يقول : «أول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه،ولكنه لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وإنما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية».

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن الزميل المرحوم الدكتور حفنى شرف وقع فى هذه الشبهة أيضاً ولم يتنبه إلى أن (المجاز) ليس هو ما يقابل الحقيقة بل ما يعبر به عن الآية أو لتوضيح الغريب وبيانه. قال الدكتور حفنى شرف: بصدد الحديث عن صاحب المجاز «كان كل همه معرفة الحقيقة والمجاز للألفاظ القرآنية وقرينها بما جاء مثيلا لها فى الأدب العربى مما جعل كتابه يعتبر بحق النواة الأولى للبحوث البيانية».

الدافع لتأليف (مجاز القرآن):

ولاننسى أن نذكر أن الدافع لتأليف هذا الكتاب سؤال وجه إلى أبى عبيدة فى مجلس الفضل بن الربيع حول غريب آية قرآنية، يحدثنا ذلك ياقوت عن أبى عبيدة فيقول : «ثم

دخل رجل فى زى الكتاب له هيئة، فأجلسه إلى جانبى وقال له:أتعرف هذا؟ قال : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه ، فدعا له الرجل ، وقرظه لعقله هذا، وقال لى : إنى كنت إليك مشتاقًا، وقد سألت عن مسألة، افتأذن لى أن أعرفك إياها فقلت: هات. قال : قال الله عزوجل :﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾[الصافات: ٦٥] وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله، وهذالم يعرف، فقلت: إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم. أما سمعت قول امرىء القيس:

أيقتلنى والمشرف مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يرو الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولُهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك، واستحسنه السائل، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتابا فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه، وما يحتاج إليه من علمه، فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابى الذى سميته «المجاز» .و سألت عن الرجل السائل فقيل لي:«هو من كتاب الوزير وجلسائه وهوإبراهيم بن إسماعيل الكاتب».

وبعد هذا الكتاب ظهرت كتب أخرى فى الغريب أهمها كتاب:

تفسير غريب القرآن لابن قتيبة:

وقد بين ابن قتيبةفى مقدمة كتابه أن كتابه:«مستنبط من كتب المفسرين وكتب أصحاب اللغة العالمين، لم نخرج فيه عن مذاهبهم، ولاتكلفنا فى شىء منه بآرائنا غير معانيهم بعد اختيارنا فى الحرف أولى الأقاويل فى اللغة».

ويعيب ابن قتيبة على قوم التمسوا منكر التأويل، ومنحول التفسير، فقد نحل قوم التفاسيرالمنحولة، والروايات المنكورة، وكان الأحرى بهم أن يعتمدوا على كلام العرب ليكون منارا لهم يهديهم ويرشدهم، لأن القرآن كتاب كريم نزل بلسان عربى مبين.

يقول ابن قتيبة :«ونبذنا منكر التأويل، ومنحول التفسير ، فقد نحل قوم ابن عباس أنه قال فى قول الله عز وجل :﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[التكوير:١] أنها غورت من قول الناس بالفارسية: كورد بكرد.

وقال آخر فى قوله: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴾[الإنسان:١٨] أراد سلنى سبيلاً إليها يا محمد.

وقال الآخر فى قوله تعالى ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَت ﴾[الغاشية:١٧]: إن الإبل: (السحاب).

وقال الآخر فى قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[الأعراف:٣١]: إن الزينة:المشط. ثم يختم ابن قتيبة مقدمته بقوله:«مع أشياء لهذا كثيرة لاندري: أمن جهة المفسرين لها وقع الغلط؟ أمْ من جهة النقلة».

أمثلة من الشواهد الشعرية فى كتاب (تفسير الغريب):

﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُم﴾[الحديد:١٥] أى هى أولى بكم. قال لبيد:

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها

﴿عَطَاءً حِسَابًا ﴾[النبأ:٣٦] أى كثيرا. يقال:أعطيت فلانا عطاء حسابًا وأحسبت فلانا أى أكترث له . قال الشاعر:

ونقفى وليد الحى إن كان جائعاً ونَحْسُبه إن كان ليس بجائع

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾[القلم:٤٢] أى عن شدة من الأمر. قال الشاعر:

فى سنة قد كشفتْ عن ساقها حمراء تَبْرِى اللحم عن عُراقها

«الجبلة» [الشعراء:١٨٤] الخلق. يقال : جبل فلان على كذا، وكذا أى خلق.

قال الشاعر:

والموت أعظم حادث مما يمرّ على الجبلّه

على أن رواة شعر الشواهد فى مجال غريب القرآن ومعانيه لم يأنفوا من الاستشهاد بسفهاء العرب وأجلافهم، ولم يتورعوا عن رواية الأشعار:«التى فيها الخنا والفحش لأنّهم يريدون منها الألفاظ، وهى حروف طاهرة» ويروى لنا الرافعى فى هذا الشأن خبرا طريفا يدل

على قدسية الألفاظ وطهارة الكلمات. قال :«روى أبوحاتم عن الجرمى أنه أتاه أبو عبيدة معمر بن المثنى الرّاوية بشيء من كتابه فى تفسيرغريب القرآن . قال الجرمي: فقلت له:ممن أخذت هذا يا أبا عبيدة فإن هذا تفسير خلاف تفسير الفقهاء؟ فقال: هذا تفسير الأعراب البوالين على أعقابهم فإن شئت فخذ، وإن شئت فذر».

وقبل أن اختم الحديث فى شواهد غريب القرآن أود أن أشير إلى رأى الدكتور طه حسين فى كتابه : «فى الأدب الجاهلى» حول استدلال ابن عباس على الكلمات القرآنية الغريبة بالشعر العربى، فقد أنكر طه هذه القصة. واعتمد على انكاره هذه القصة بأنها قد وضعت فى تكلف وتصنع لتثبت أن ألفاظ القرآن الكريم كلها مطابقة للفصيح من لغة العرب، أوأن هذه القصة مدسوسة عليه «فقد كان له مولى وهو «عكرمة» يدس عليه كثيرا من الأخبار».

والحق أنه لا داعى لهذا الإنكار، أو لهذه الاحتمالات والافتراضات فعبد الله بن عباس يعلم أن الشعر ديوان العرب، وهو المصدر الوحيد الذى يلجأ إليه فى تفسير غريب القرآن. وقد قال: «الشعر ديوان العرب فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه».

* * *